المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

اجتماع
خبراء أدب الخيال العلمي
في الوطن العربي

(تونس، 6-2009/4/8)

أدب الأطفال والخيال العلمي
بين الواقع والطموح

الأستاذة لينا كيلاني

إذا كان الأدب عموماً يعتبر نافذة الروح على كل العوالم فإن لأدب الأطفال أهمية خاصة في ترسيخ القيم والمعارف، وإطلاق الخيال، وصقل شخصية الطفل من خلال الدور التربوي والتثقيفي الذي يقوم به. وبما أن الطفل يتمثل أدب الأطفال من خلال القصة على أنها الحقائق فهو يذعن لها، ويتماهى مع أبطالها، ولو تعرض لتجربة مماثلة تشبه تلك التي قرأ عنها فإنه سيتصرف كما البطل في القصة، ومن هنا تأتي أهمية أدب الأطفال في الدخول إلى عوالمهم وسبر أغوارها.

وإذا كان أدب الأطفال عموماً قد حصر نفسه في إطار محدد من حيث الشكل والمضمون معبراً عن منظومة القيم المتعارف عليها، ومحاولاً إطلاق الخيال على أجنحة السحر والخوارق فإن أدب الأطفال المعاصر أصبح بحاجة إلى رؤية أخرى ينطلق منها ليواكب ما أصبح عليه الطفل الآن وهو ينغمس في مظاهر الحضارة، ويتعامل معها بسهولة وتلقائية كما بفضول الاكتشاف والدهشة.

إذن فخطاب الطفل لم يعد ينفع معه ذلك الخطاب التقليدي بما ينطوي عليه من مباشرة، وقيم تبدلت مفاهيمها وتغيرت حسب مقتضيات العصر، في حين أن الطفل الآن أصبح أكثر احتياجاً لأدب يخترق مشكلاته الحقيقية إذ أن أوضاعاً اجتماعية متغيرة أصبحت تحيط به، كما أنه بحاجة في الوقت نفسه إلى مفتاح حقيقي غير مزيف يفتح به آفاق المستقبل.

صحيح أن الخيال هو أساسي في الأدب والإبداع عموماً لكن الخيال المقصود هنا هو ذلك الذي يثير فكر قارئه، ويقفز به إلى آفاق أبعد. ألم يعتمد العلم الخيال في الوصول إلى ما وصل إليه من مخترعات وابتكارات؟ ألم تبدأ كل المخترعات الحديثة بالخيال قبل أن تنتهي إلى الواقع؟ هذا مما لا شك فيه فكم من أدوات العصر التي تقع تحت أيدينا قد كانت أفكاراً وخيالاً في عقول كتاب ومفكرين وعلماء. والعلم كما الأدب وكما المهن كلها تحتاج إلى الخيال.

وما دام الإنسان هذا الكائن الذكي يملك أفقاً واسعاً للخيال فإن مرحلة الطفولة تتميز به لأنها المرحلة التي يكون فيها الإنسان أقدر على التخيل من باقي مراحل عمره. ومادام الأمر كذلك فلا

أقل من الاستثمار الأمثل لملكة الخيال هذه ونحن نبدأ بتحفيزها منذ السنوات الأولى للطفل ولو كانت في مرحلة ما قبل المدرسة، وعندما يكون الخيال بسيطاً ومبهماً غير معرف في الوقت ذاته، ونكتشفه من خلال سلوكيات الطفل في اللعب بالدرجة الأولى، ومن التفاعل مع الآخرين. ونحن نصعد في مراحل استثمار الخيال ننتقل من مرحلة عمرية إلى أخرى وصولاً إلى المرحلة التي يكتسب فيها الطفل خيالاً إبداعيا مركباً يستطيع معها أن يتفاعل مع أشكال الخيال التي تأتيه من الآخرين بما يذكي خياله وينميه، ويوجهه في مساره الصحيح.

وإذ تكمن مشكلتنا في ما يقدم الآن على ساحة أدب الأطفال في الوطن العربي نقول إن هذه المشكلة القائمة تتفرع الى مشاكل، منها أن يقبل الطفل من تلقاء ذاته على الكتاب كإقباله على التلفاز، ومن بعده على الألعاب الكترونية، وصفحات الانترنيت، والعوالم الافتراضية، ولو أن الكتاب كان أسبق على هذه الوسائل الحديثة، وهي أكثر جذباً وإغراء للطفل إلا أنها لا تغني عن الكتاب.

إذن فنحن نريد الطفل أن يتناول الكتب الخاصة به ومنها الكتب الأدبية، ومما يشوقه أكثر فأكثر هي القصص بديلاً عن حكايات الجدات، ودعماً لما يراه على الشاشات فقد يكمل فيلماً رآه، أو يستوضح عنه، أو يزيد فيه، ولعله يكرر تجربة التمتع به عندما ينفرد بهذا الكتاب الذي رأى ملامحه على الشاشة، أو في فيلم سينمائي. ومن هنا تتم عمليتان: أولاً: اصطياد الطفل للقراءة، وثانياً: إفساح المجال أمامه لكي يخلق عالماً خاصاً من صنعه مع الكتاب مستخدماً خياله وما يريد أن يتوقف عنده.

لكننا نعود لنسأل أنفسنا: ماذا قدمنا ونقدم للطفل العربي من مادة أدبية تلبي احتياجاته الفكرية، والنفسية، والبيئية حتى؟ مع العلم أن بيئات الطفل العربي هي متقاربة ومتشابهة إلا من بعض الفروقات ذات الخصوصية. وبنظرة أكثر قرباً لنماذج عديدة من أدب الأطفال العربي والأسماء كثيرة ومنها ما هو معروف ومشهور، أو خلاف ذلك نجد أن أغلب كتب الأطفال ما تزال أسيرة الخطاب النمطي دون تجديد، الى جانب الاتكاء على التراث بنسبة كبيرة فهو حاضر دون إضافة تذكر أو رؤية جديدة تعتبر، ولو أن بعض التجريب يأخذ حيزاً في هذا الاتجاه ولكنه يبقى متواضعاً. وبما أن الرؤية الحياتية في هذا العصر قد اتسعت، وأنجز العلم فيه ما يفوق الخيال فقد أصبح كثير من الخيال المتداول والموروث باهتاً ولا يثير الاهتمام، كمفهوم بساط الريح مثلاً في زمن الطائرات والمركبات الفضائية، والصواريخ، وغيرها، ولا ننكر أهمية هذا

الخيال الموروث ولعله كان قاعدة للمكتشفات العلمية إلا أننا وما دمنا قد استهلكناه بحاجة الى خيال آخر مبتكر يحلق بعقول أطفالنا الى آفاق جديدة ربما تكون رسوماً تنبؤية للمستقبل.

ولذلك نحن أمام مهمة ليس في نقل التراث واستمراره كما هو بل في تجديده، وإحيائه بإسقاطات معاصرة وبروح معاصرة، وتقريبية الى ذهنية الطفل، وجعله محبباً ومترابطاً مع حاضره. كان الفلكلور ولا يزال النبع الأول للخيال في أدب الأطفال، هذا الخيال الجامح الذي يفرد عباءته على مساحة كبيرة من التراث البشري لم يكن لينبع من فرد ما، أو مجموعة ما من الأفراد بل هو تراكم لما تفتح عنه الخيال البشري عبر الأجيال. وانتقل الخيال عبر الأدب الشفهي الى الحكاية، ومن ثم الى فن القصة، وأصبح من أهم أسس ودعائم أدب الأطفال. هذا إذا لم ننس المترجمات الكثيرة عن اللغات الأجنبية، ومضامينها التي لا تنسجم مع عقلية الطفل العربي أو واقعه، وقد يشعر أنه غريب عنها فهي تعبر عن ثقافة الآخر، ولو كنا بحاجة الى حيز منها للتعرف على هذا الآخر، وبغاية التداخل الثقافي إلا أن التداخل الثقافي يتم من طرف واحد أي في الترجمات الى اللغة العربية وليس العكس في الترجمة من اللغة العربية الى اللغات الاخرى.

والخيال في أدب الطفل لا يعني فقط أن نبني عالماً أسطورياً خيالياً بل قد يكون عالماً واقعياً حقيقياً ولكنه منسوج بالخيال.. انه محور العملية الإبداعية بحد ذاتها. حتى الأساطير والخرافات التي تتحدث عن عوالم غير موجودة، وعن وقائع لا تحدث مطلقاً لا تكتفي بإطلاق الخيال فقط وإنما تحمل في حقيقتها مضامين عميقة لفلسفة الحياة كلها، والهدف البعيد منها لا يقف عند حدود التسلية والإمتاع بل هما القيمة والمعرفة الحقيقيتان.

أما أدب الخيال العلمي كجنس أدبي حديث وقديم بآن معاً كون انبثاقاته وردت كإشارات ورموز جاءت حتى في الأساطير القديمة، ومن بعدها في كتاب الخيال الأغنى والأشهر وهو كتاب (ألف ليلة وليلة)، أقول إن أدب الخيال العلمي أخذ يندمج كجنس أدبي مستقل مع أدب الأطفال بهدف أن تتفتح الأجيال على العلم والخيال، ولتستقي من أدب الخيال العلمي المعلومة العلمية الصحيحة وهي تتفتح وتزدهر على أجنحة الخيال كوردة أسطورية، فيتحقق بالتالي هدفان اثنان: التعريف بالثقافة العلمية ونشرها من جهة، وإطلاق الخيال في أوسع حدوده من جهة اخرى. وكما أن الخيال هو المادة الأساسية للكاتب فهو الغاية ذات الأهمية بالنسبة للطفل، فشحذ الخيال وإغناؤه لدى الطفل، والجرأة على أن يعبر بالخيال عما يريد هي من غايات أدب الأطفال لأن الخيال أساس لكل نمو وعلم ومعرفة وتطور، فكما يحتاج الفنان رساماً كان أو شاعراً الى الخيال كذلك يحتاجه المهندس، والعامل، والعالم، الخ..، والخيال بحد ذاته متعة

للطفل، فالضحكة لا تنفجر إلا عندما تحمل على جناح الخيال، ولا ننسى هذه الخاصية عند الطفل في التقمص والتماهي، واستنطاق الحيوان والجماد عن طريق الأنسنة، وتشخيص المحسوسات، وإضفاء الروح عليها مما يذكي الخيال ويمد آفاقه.

ومادمنا نتناول ما هو قائم على ساحة أدب الأطفال من كتب بنظرة شاملة، ودون تحديد لعناوين أو لاسم كاتب بعينه فإننا نتوقف عند ما يسمى بالكتابة العلمية وأدب الخيال العلمي، وعند هذه أستطيع القول إن ما يقدم على أنه من الكتب العلمية، حتى تلك التي نالت الجوائز، قد وقعت في أكثر مأزق ليس أولها افتقارها الى اللغة الأدبية بمعنى أن يكتب أدب للأطفال لا كتابة للأطفال، ولا آخرها الافتقار الى المنهج العلمي في السياق الأدبي. وقد يكون من المستغرب أن نضع هذا العنوان في مجال الأدب، ولكن المنهج العلمي ضروري فيما لو استخدمنا المنجزات العلمية الحديثة كمادة للأدب، فلا يجوز هنا للكاتب أن يفترض أسباباً، أو يخلق أحداثاً، أو يتوصل الى نتائج لا يقرها المنهج العلمي لئلا نضلل أطفالنا، أو نناقض ما هو قائم علمياً، أو ما تلقنوه في المدارس، ومن جهة اخرى فان علينا أن نغذي هذا الاتجاه وهو الربط بين العلم والإبداع.

ولا يقل عن المنهج العلمي أهمية ربط الطفل بواقعه الذي قطع أشواطاً بعيدة في التقدم الحضاري وفي المخترعات والتكنولوجيا، بل يمكن للكاتب أن يمضي به الى المستقبل فيهيئه للمزيد من هذا التقدم ليأخذ موقف الجرأة والإقدام لا الدهشة فقط ويليها التراجع أو الجمود، ويمكن في هذا المجال الاستفادة من النبوءات العلمية، ومن الطموحات البشرية في المستقبل وما يمكن أن تفرزه مخيلات الطفولة الجامحة.

يقوم العديد من الباحثين والدارسين والمهتمين بأدب الأطفال بوضع الدراسات، والأبحاث النظرية والتطبيقية في هذا المجال، ولابد للمهتم من أن يطلع عليها ويقف منها إما مؤيداً، أو معارضاً، منتقداً سلباً أو إيجاباً. لكن المقصود هنا هو ليس تقييم تلك الأعمال وإنما الوقوف عندها لمعرفة مدى ما يتصف به أدب الأطفال الآن، وما يجب أن يكون عليه بنظرة واقعية تتناول ما بين أيدينا من حصيلة حول أدب الأطفال، ومتجاوزين هذه الحصيلة الى ما نطمح أن يكون عليه هذا الأدب نظراً لأهميته المتزايدة يوماً بعد يوم وخاصة في انفتاح أطفالنا على العوالم الطفولية الهجينة والغريبة من خلال وسائل الإعلام والصحافة الخاصة بالطفل، والكتب التي يمكن أن تطرح بين أيديهم دون أن تتوفر فيها الشروط المطلوبة لبناء طفل عربي حقيقي من

داخل المجتمعات العربية، ومن ضمن قيمها وتطلعاتها وأهدافها القومية الروحية كأمة عربية إسلامية.

والمضمون في عالم الأدب واسع كالبحر الزاخر، متجدد بتجدد الحياة، وغني ومتنوع بتنوع تجارب الحياة ذاتها فما من تجربة هي الأخرى. وعالم الطفولة مرن ومتسع فكثيرة هي الموضوعات التي يمكن طرحها للطفل هذا الكائن الذكي المتفتح النقي والقادر على التقاطها ولو كانت بلمحات.

لا ننكر أن هناك كثيرا من المضامين أو الموضوعات مما لا يجوز إدخالها أو تقريبها من عالم الطفل لأنها تأتي تلقائيا في مراحل النضج والنمو، ولكن الموضوعات التي يمكن مقاربتها هي أغنى وأكثر بكثير مما يمكن لنا أن نتصوره خاصة وأننا نعيش في عالم متفجر بالأحداث والمخترعات والاكتشافات وكل ما هو جديد. والطفل المعاصر أصبح يطلع عبر وسائل الإعلام المختلفة على كل هذه العوالم النابضة من حوله سواء عن قصد أو بشكل عفوي وما يتفتق عن هذه الآفاق من أفكار جديدة تنمو باستمرار وتزدهر كشجرة خرافية. فما الذي يدفعنا إذن الى موضوعات لا تمس الطفل وإنما هي للبالغين والراشدين، أو تلك الموضوعات المتداولة والمستهلكة والتي يجب أن يكون فيها هي أيضاً رؤية جديدة أو تفسير جديد حسب مقتضيات العصر؟ فمادامت القيم ثابتة، والموضوعات هي ذاتها فإن مساحة الرؤية وتقليب وجهة النظر هي الأهم في هذا الزمن، فالكرم مثلاً قيمة ثابتة وموضوع يجب أن يظل مطروحاً لكن تناوله وتفسيره حسب العصر وانتقاله من الساحة المادية الى المعنوية وبالعكس هو التجديد.

إذا كان الخيال المبتكر والجديد مشجعاً لتوسيع آفاق الطفل وتطلعاته نحو المستقبل، فإن شحذ هذه الأداة الهامة سينعكس عليه في كل جوانب الحياة. ولنا أن نتصور تلك القنوات التي يتسرب منها الخيال ليغني حياة الطفل في المستقبل. قد يكون الخيال في صورة مبتكرة، أو عقد مقارنة، أو ربما فكرة، فما بالنا بخلق عالم القصة كله وهو متخيل؟ ولعل أطفال اليوم الذين غزتهم الشاشات ووسائل الإعلام هم الأقدر على تقييم الخيال فيما إذا كان مثيراً لهم أو جديداً، وهذا يحتاج الى سبر والى استطلاعات ميدانية من خلال الأطفال أنفسهم مما هو خارج بحثنا هذا أو ملحق به.

وهل نغفل أيضاً الكتب النوعية والموسوعات التي كشفت الأسرار واطلع عليها الصغار فأصبحوا يميزون بين ما هو مكتشف وما هو مبتكر؟ ونحن نميز بين هاتين الكلمتين، إذ لم تعد

هناك جزر أو قارات مجهولة، أو عوالم لا يعرفها البشر، حتى الفضاء بعلومه أصبح مدوناً وقابلاً لأن يقع بين أيديهم. وهنا نقول إن الربط فقط بين الموضوع أو الفكرة وما هو معلوماتياً بين أيدينا إضافة الى الأسلوب يمكن أن يحقق الكثير الكثير من شحن خيال الطفل ودفعه بحوافز جديدة للمزيد من الإطلاع والمعرفة، وبالتالي الى الإضافة، وليست الإضافة تلك التي تأتي من الكاتب بل الأخرى التي يسقطها الطفل على العمل الذي يقرؤه.

أما الخيال العلمي فلم يعد تلوينا بل أصبح من متطلبات أدب الأطفال لارتباطه بالعصر وبالمنجزات العلمية المتلاحقة والسريعة والتي يلمس الأطفال أثارها في حياتهم العادية. ونحن نناشد كتّاب الأطفال على تشجيعه، بشرط أن يكون خيالاً علمياً فعلاً وليس أشكالاً من التخيل والعوالم الوهمية، لأن التجربة الإنسانية التي اختزنت نماذج من هذا النوع حتى قبل أن يطلق عليها تسمية (الخيال العلمي) كانت ذات فائدة كبيرة ليس من الناحية التنبؤية بل من جراء تفجير خيال الصغار الذين أصبحوا فيما بعد علماء وباحثين، وأفادوا من هذا الخيال في المخترعات والعلوم.

ولعل أبرز شروط الخيال العلمي هو أن يتوافق مع النظريات العلمية الصحيحة والدقيقة أيضاً، فلا يجوز مثلاً أن نتخيل الحياة على كوكب ما كما هي الحياة على الأرض مادام العلم بين أيدينا يعطينا شروط الحياة على هذا الكوكب، وهكذا. كما وإن الخطأ في الخيال العلمي أو ما أطلق عليه أصحابه تجاوزاً تسمية (خيال علمي) يكون له مردود سيء لأنه يشوش المعلومات التي نريدها أن تكون ثابتة خاصة وأننا في زمن المعلوماتية. ومادام لنا فرصة للتأكد من الحقيقة العلمية من خلال الانترنيت والموسوعات فلا يغفر للكاتب ألا يعطي معلومة علمية صحيحة.

وأبواب الخيال العلمي لا تحصر ومفتوحة بلا حدود، ولا تقف عند عتبات الفضاء فقط. فلماذا لا يكون الخيال العلمي في النبات، والحشرات، والغابات، والبحار، والجبال، وغيرها؟ هذا إذا صرفنا النظر عن البيئة وموضوعاتها، والوراثة ومكتشفاتها، والفيزياء وآفاقها، والذرة وما تطرحه من موضوعات تفوق كل خيال. فما أصبحنا أمامه أو في مواجهته هو تراث إنساني جديد جاء نتيجة تراكمات جعلت منه تراثاً إنسانياً يؤسس لمراحل مقبلة من مستقبل البشرية. وما بالنا لو تناولنا هذا التراث الذي أصبح بين أيدينا بكل جوانبه التي لا حصر لها، والتي تدخل في تفاصيل حياتنا؟ أقول ما بالنا لو حملناه على أجنحة الخيال العلمي كثراء لا حدود له بدءاً من نفي أبسط سؤال: كيف أصبحت فاكهة الشتاء تتوفر في عز الصيف؟ وانتهاء أو دون انتهاء

بسؤال: كيف غدونا نرى ما هو في آخر بقعة من العالم؟ أو ما هي النانوتكنولوجي أو الفمتو ثانية؟

إذن فهذا التراث الإنساني المختلف، وقد أصبح السمة المميزة للعصر يدفعنا بشكل أو بآخر الى التركيز على الجانب العلمي في حياتنا عموماً، وفي أدب الأطفال خاصة مادمنا نتناوله في هذه الورقة فندعو الى النهوض بأدب خيال علمي حقيقي في الوطن العربي كأداة لإدماج الطفل بروح العصر، ووسيلة للمعارف العلمية. فما فائدة استخدامنا للتكنولوجيا الحديثة إذا كنا غير قادرين على فهم أسسها؟ صحيح أننا لم نعد شعوباً مصدرة للعلم والحضارة بل أصبحنا مستهلكين لها فلا أقل من أن نعرف عنها فلربما عثرنا على مفاتيحها من جديد فنكمل المشوار، أو نفتح باباً سحرياً للذهن العربي على آفاق وسماوات ظل يحلم بها حتى يتراءى أمامه انه قادر على الوصول إليها.

ولماذا أصرُّ على (الأدب) في الخيال العلمي؟ ذلك لأن الأدب هو الملهم للخيال عامة، وللخيال العلمي خاصة. فإذا ما وصلنا إلى الاعتراف به كجنس أدبي خاص ومتميز فإن علينا أن نقوم بمقاربة بين الأدب وبين العلم بحيث نضع العلم وشروطه أولاً، ثم نلجأ إلى الخيال، بمعنى أن يكون الأديب أو الكاتب ملماً إن لم نقل متخصصاً في هذا الفرع من العلوم ليجمح بها مع الخيال إلى ما يمكن أن يتحقق نتيجة ذلك، شأنه شأن المهندس الذي لا يمكن له أن يتصور بناءً معيناً دون أن يكون متمكناً من الأسس الهندسية التي يبني عليها.

وبما أن للعلم الآن تفرعاته وتخصصاته اللامحدودة من الحشرة حتى سفينة الفضاء فإن على الكاتب أي كاتب الخيال العلمي أن يطلع اطلاعاً كافياً، وربما يتبحر في هذا الاختصاص حتى يرتفع بحصيلته الأدبية الى ما نسميه الخيال العلمي. ولا أحد يسأله أو يحاسبه من أين استوحى هذه الفكرة؟.. فلو أن أحداً استوحى فكرة المروحية من البعوضة وتدويمها قبل طيرانها فإن هذا ممكن في تحوله من الخيال الى العلم. ولو أن آخر عثر على ما يتميز به الخفاش من استشعار للخطر عن بعد وهو أعمى لا يبصر فلابد أن تقفز الى ذهنه فكرة الرادار مثلاً، وهكذا في مبادئ الضغط الهوائي أو البخاري، وانتقال الصوت والضوء، وكل الأسرار التي كشفت عنها الذرة في طاقاتها وإمكانياتها اللامحدودة في الضبط والربط، وفي الإشعاع والحركة، وفي الدقة اللامتناهية التي ربما تفوق خيال الإنسان نفسه. وهل نستطيع القول إن أي أب أو أم يرى كل منهما لمحة من صورته في ابن أو ابنة فيأتي الاستنساخ ليقول إن بإمكانه أن يرى صورة مطابقة تماماً له؟.. وهكذا تتعدد الأمثلة.

ومادام الناشئة أكثر من سواهم هم مَنْ يقبلون على قراءة أدب الخيال العلمي فلا أقل من أن نضع بين أيديهم هذا الجنس الأدبي الجديد نسبياً سواء أكان في كتاب تقليدي، أو سواه الإلكتروني يكون سلماً يرتقون به إلى آفاق أوسع من الخيال والعلم، وما يمكن أن يخبئه المستقبل من كشوفات واختراعات، مادامت حياتنا المعاصرة بما أصبح فيها من تطور علمي نشهده يوماً بعد آخر تشكل حافزاً لأي منا لأن يقبل ببساطة على كتب الخيال العلمي التي تكشف جانب العلم مضافاً إليه الخيال، ومحمولاً على أجنحة أحلام الإنسان التي لا تنتهي.

وفي الآونة الأخيرة بدأنا نلحظ نوعاً من التسابق يبرز بين الكتّاب في هذا الاتجاه وكأنه نوع من التجديد أو التحديث لأدب الأطفال. وإذا بنا نقف هنا لنتساءل: هل إنجازات العلم الهائلة والمذهلة والتي تسجل قفزات كبيرة يوماً بعد آخر تفرض مثل هذا التوجه في الأدب؟ أم أن هناك هدفاً عند الكتّاب لكي يأخذوا منجزات العلم وقد كانت أحلاماً وخيالات وإذا بها على أرض الواقع ليقفزوا منها الى مسافات أبعد؟ إذا كان الأمر هكذا فقد وضعنا أيدينا على ضالتنا، أما إذا كان الأمر لا يتعدى التجريب والتحديث دون أسس علمية ثابتة وأكيدة فهذا ما يدفعنا لفرز ما بين أيدينا من قصص الخيال العلمي ورواياته بين ما يتوافق وشروط هذا الجنس الأدبي، أو يبتعد عنه ليدور في فضاء التهويمات والتجاوزات غير المنطقية.

ونعود لنقول إن (الخيال) هو المفتاح السحري لما يمكن أن نسميه (أدب الخيال العلمي)، وتأتي الحقيقة العلمية التي ربما تكون طيفاً لم يتضح بعد، أو بذرة صغيرة لم تشق طريقها نحو النور، أو هي مولود يمكن أن تنتج عن عدة حقائق علمية، إلا أنه لا يمكن الاستغناء عن هذه الأرضية العلمية بشكل أو بآخر.

وإذا كان هذا الجنس الأدبي الجديد نسبياً كما اتفقنا، والجديد نسبياً أيضاً على مجتمعاتنا العربية وهو (أدب الخيال العلمي) قد بدأ يلاقي اهتماماً من الكتّاب، وإقبالاً ولو محدوداً من الجمهور بعد أن كان نادراً وقليلاً، فلماذا نظل نعتمد وجهة النظر الغربية في تقديمه الى القارئ العربي عبر الترجمة؟ ولو أن الغرب تقدم في هذا المجال بعد أن أمضى عشرات السنين لم يفرز فيها أكثر من (جول فيرن)، وهربرت جورج ويلز (H.G.Wells)، وألدوس هكسلي، وآخرين قلة غيرهم.

فما هي الأدوات الفنية التي يستخدمها الكتّاب العرب في هذا الجنس من الأدب؟.. سؤال نوجهه للذين يمارسون أدب الخيال العلمي، فنقول لهم: ما هي أدواتكم؟.. وما هو مفهوم أدب الخيال العلمي عندكم؟... ما هي المقادير التي تمزجون بها بين العلم وبين الخيال؟.. وأيهما أرجح؟... من أين تأتون بمصطلحاتكم العلمية لكل فرع من فروع العلم؟.. هل تبتكرونها أم تأخذونها من المعاجم؟... وهل العالَم الخيالي الذي تخلقونه مبني كلياً على الحقيقة العلمية؟... أم أنكم تكتفون باصطياد بديهة علمية، أو حقيقة شائعة ومعروفة ثم يكون العمل الأدبي؟

أسئلة أو نقاط نضعها كعلامات على الطريق بهدف الوصول الى غاية أكبر وهي التأسيس لأدب خيال علمي حقيقي وأصيل في الوطن العربي مادامت كتب الخيال العلمي التي أفرزها الغرب في مطلع القرن الماضي قد جاءت على ضوء الكشوفات العلمية آنذاك، وكان خيال الأديب فيها يفوق خيال العالِم بحيث تصور العالَم الذي ينسجه بمصداقية علمية وفنية فجاء عالَماً كاملاً متكاملاً، وكان الحلم والخيال أساس العلم، والاحتفاظ بالحلم إنما هو في صالح تطور البشرية.

ولو أردنا المقارنة بين ما توفر لدينا من أدب الخيال العلمي العالمي وما فيه من تماسك من حيث المعلوماتية، لنقارن بينه وبين هذه الطريق التي انفتحت أمامنا في الوطن العربي والأقلام قبل الأقدام تسع في التنافس عليها لاضطررنا الى الوقوف عند بعض المحطات في محاولة لسبر ما يقدم في الوطن العربي على أنه خيال علمي، ولنحدد قواعد وأسساً ثابتة لهذا الجنس الأدبي لا ينبغي أن يخرج الكاتب عنها بحال من الأحوال.

صحيح أن العلم هو أيضاً خيال، ولولا هذا الخيال لما وضع العلم فرضياته التي وصلت بنا الى ما وصلنا إليه لكن المنهج العلمي ضروري فيما لو استخدمنا المنجزات العلمية الحديثة كمادة للأدب. ولعل أبرز شروط الخيال العلمي هو أن يتوافق مع النظريات العلمية الصحيحة والدقيقة أيضاً.

ولو أردنا أن نحدد منطلقات واضحة لأدب الخيال العلمي لقلنا إن على الكاتب أن يواكب التقدم الحضاري في محاولة لاستدعاء رؤى مستقبلية تكون أكثر جرأة مما هو قائم، ولقلنا أيضاً إن هذا الاستدعاء لروح قرن جديد قادم لا ينجح دون ثقافة علمية أصيلة تجنح بالكاتب الى رؤى حقيقية أبعد ما تكون عن القص الخيالي الذي لن يكون واقعاً في حال من الأحوال، ولو انحرف الكاتب في هذا الاتجاه بعيداً عن مصداقية العلم نتيجة ضعف الثقافة العلمية لكانت الإشارة

واجبة هنا الى ما قد ينجم عن مثل هذه الأعمال من خطورة على النشئ والمتلقي أياً كان، لأن دور الأدب على تنوع أجناسه هو فاعل ومؤثر في المجتمعات الإنسانية. هذا وقد أسس بعض العلماء نظرياتهم على التنبؤات فكانت أساساً لإنجازات معاصرة كان الخيال العلمي فيها حافزاً لهؤلاء العلماء.

فهل نستطيع القول بعد كل هذا إن أدب الخيال العلمي أصبح ضرورة مستقبلية تُعد الإنسان لتقبل التطور القائم وما سيأتي به المستقبل؟ أو أنه ضرورة من حيث تنمية الخيال البشري كمدخل للإبداع؟ أظن أن هذا سؤال مشروع طالما أن هناك دولاً متقدمة تدرج أدب الخيال العلمي في مناهجها الدراسية، وتجعله تخصصاً علمياً أكاديمياً في جامعاتها، وتدخله في دراسات المستقبل الاستراتيجية. سؤال مشروع ومبرر إذا كنا لا نريد صدمة المستقبل لأجيالنا.

أما نحن في عالمنا العربي فمازلنا نستغرب هذا الجنس الأدبي، والنظرة إليه لا تخلو من الاستهجان من جهة مَنْ يدرسون الأدب ويقيّمونه أو ينقدونه، وحتى الناشرين الذين يقومون بطبع الكتب وتوزيعها سواء أكانوا دوراً خاصة للنشر، أو مؤسسات ثقافية، إذ أن هذه النظرة الدونية الى هذا الجنس الأدبي تجعل مجالات نشر أدب الخيال العلمي محدودة ومتواضعة، ولا تقع ضمن أولويات النشر عموماً الذي مازال يعتمد كثيراً على التراث العربي والعالمي من خلال المترجمات، وعلى قصص الحيوانات وغيرها باكتفاء غير مبرر ببث منظومة القيم المتعارف عليها كالقيم الإنسانية، والأخلاقية، والتعليمية التربوية، والدينية، والجمالية، وغيرها كثير دون التعرض الى القيم المعاصرة التي بدأت تفرض نفسها بقوة على مجتمعاتنا كما على أغلب مجتمعات العالم.

أما مَنْ يقومون بالعملية الإبداعية ذاتها من كتّاب وأدباء فهم يقعون في مأزق حيال هذا الجنس الأدبي بحيث تخرج أعمالهم الممهورة بتسمية (أدب الخيال العلمي) أقل مما يجب أن تكون عليه. وهذا المأزق أو هذه الأزمة لا تتشكل إلا عند غياب الثقافة العلمية من ناحية، والجرأة على الكتابة في هذا الجنس الأدبي دون استكمال الأدوات من ناحية أخرى. وهنا تجدر الإشارة إلى اللبس الحاصل بين تقديم المعلومة العلمية ذاتها بتبسيط وبأسلوب خيالي، وبين الأدب الذي يؤسس للخيال العلمي.

ثم إن على كاتب الخيال العلمي مهمة أخرى لا تقل أهمية عن مصداقيته العلمية، وهي وضوح الرؤية والأيديولوجيا التي تبنى عليها تلك الكتابات العلمية، فمَنْ قال إن الخيال العلمي لا يبلور اتجاهاً فكرياً وأيديولوجياً ما يدعمه مسار العلم ومخترعاته؟ ألم يمهد اكتشاف البارود وصنع السلاح على اختلاف أنواعه وأشكاله لثقافة الحروب وهيمنة القوي على الضعيف؟ ألم يمهد كتاب (عالم جرئ شجاع) لهكسلي منذ منتصف القرن الماضي إلى تعزيز فكرة (السوبر مان) أو الإنسان الغربي المتفوق؟ ألم يكن لنظريات أينشتاين وأفكار نيتشة دور في فك أسرار الخيال العلمي؟ ولعل النقّاد يرجعون ما وجد كخيال علمي إلى تلك المنابع. إذن فهذه الكتابات العلمية على اختلاف آفاقها ورؤاها تنبثق من منطلقات فكرية، ومبادئ يؤمن بها الكاتب فيكون الخيال من خلالها كرؤية، وهذا ما حصل مع (هربرت جورج ويلز) الذي كان يؤمن بالاشتراكية والدولة العالمية.

ولابد من الإشارة ولو بسؤال: هل لنظم التعليم دور في هذا السياق؟ وإذا كان الجواب بنعم نقول إن نظم التعليم العربية لا تأخذ بعين الاعتبار ضرورة التركيز على الخيال والإبداع عند النشء، بل إن الثغرات القائمة في تلك النظم تجعل العثور على الموهوبين أمراً استثنائياً لا يتكرر كثيراً بين أطفالنا في المدارس، ومن هنا تأتي أهمية إعادة النظر في النظم التعليمية والتربوية في عالمنا العربي مع الأخذ بعين الاعتبار مواكبة العلوم الحديثة، وعلوم التكنولوجيا بشكل خاص لتهيئة أجيال من المبدعين والعلماء.

ولا نغفل في هذا السياق أيضاً ضرورة التطرق الى المواضيع المعاصرة ومستجداتها في محاولة لتقريب المفاهيم الجديدة من الأطفال والناشئة، وهي مستجدات تستدعي المداخلة واختراق عالم الطفل لتقريب هذه الأحداث الى عالمه حتى لا يظل غريباً لا يفهم ما يدور حوله. ولأدب الخيال العلمي دور آخر يضاف الى فتح آفاق الخيال عن طريق العلم، وهو تحديد موقف أخلاقي من الفكرة أو النظرية العلمية القابلة للتطبيق التي يدور حولها العمل.

إن أهمية الخيال العلمي تتحقق عند معرفة ما إذا كان من الممكن تحويل هذا الخيال الى حقيقة. ولهذا السبب كان الكاتب الأميركي الشهير (مايكل كرايتون) يضمّن مؤلفاته أسماء المراجع العلمية والبحثية التي استقى منها معلوماته وبنى قصصه حولها. ولهذا السبب أيضاً يقومون في أميركا تحديداً بالاهتمام بأدب الخيال العلمي كواحد من أهم الأجناس الأدبية لغرض إطلاع الناس على العلوم، وسبر مدى حماستهم نحوها أو تفاعلهم معها، وعلى أساس ذلك

ونتيجة له تصدر قوانين تمويل البرامج التعليمية. فإذا كان هذا ما يفعلونه في فإنهم لا شك يأخذون أدب الخيال العلمي على محمل الجد لأنه بالتالي يقوم على علم حقيقي وعلى رؤى تنبؤية. وللغاية ذاتها يدعى كثير من أدباء الخيال العلمي الى مؤتمرات علمية لأنهم أصحاب رؤية تصنع الطريق نحو مستقبل الإنسانية.

وما أغنى أدب الخيال العلمي في الغرب وفي أميركا تحديداً، وجعله يزدهر كان السينما التي جسدته في أفضل صوره. وما بالنا بالتقنيات الحديثة التي خدمته، وزادت من إبهاره، وجعلت كل الأفكار والشطحات الخيالية قادرة أن تتجسد على شكل صورة، فهو إذن لم يفتح فقط أفاق الخيال بل أضاف إليها خيالاً فوق خيال عن طريق صورة السينما المبهرة التي تفتح الخيال أصلاً. وما بالنا إذن ونحن نملك الآن آلاف الصور للكون، والمعلومات الجديدة المبهرة التي وصل إليها العلم بما يشكل تربة خصبة جداً لإعمال الخيال في أي من تلك المجالات: الفضاء، الاستنساخ، المخترعات الحديثة، الخ...

وإذ أعود الى عالمنا العربي أتساءل: لماذا لا نُحل أدب الخيال العلمي لجيل الشباب من أبنائنا محل ألغاز الجيب والقصص البوليسي الرخيص الذي يقبلون عليه؟ فنقدم لهم أدباً جاداً ورصيناً، نرفقه بندوات ومؤتمرات للتعريف به، وتقريب فكرته من الشباب، فهو أكثر إمتاعاً، وبثاً للسعادة من غيره من القصص، لأن مثل هذه الأعمال الأدبية هي بحد ذاتها تحتوي على الإثارة والتشويق، وتقوم على علم يفوق الخيال، بل إنه يفتح أبواب الخيال على مصراعيها لدى جيل الشباب من الجنسين والذي يبحث دوماً عن الإثارة والمغامرة والتشويق إما من خلال القص البوليسي السخيف، أو القصص العاطفية التي تقبل عليها الشابات.

أن الثقافة العلمية شرط ضروري لإنتاج أدب خيال علمي.. وهذا الجنس الأدبي قد أصبح ضرورة معاصرة لا ترفاً أو تسلية، وعلى كتّابنا ونقادنا أن يكونوا أكثر انفتاحاً وتجاوباً حياله، وأن نعمل جميعاً ليكون لنا بصمة واضحة في هذا المجال خاصة وأن عالمنا العربي يزخر بالكثير من الطاقات، وبالكثير من الكتّاب والأدباء والمبدعين، فنحن نريد أن نعرّف بهذا الجنس الأدبي من خلالنا لا مترجماً عن الغير.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن الخطوات الخجولة نحو هذا الجنس الأدبي لم تعد مقبولة بحجة الخوف من تأثير أدب الخيال العلمي السلبي على الأجيال في حال عدم الارتقاء به الى المستوى المطلوب، بل أصبحنا مطالبين بكتّاب جديرين يكتبون خيالاً علمياً حقيقياً يعتمد الدقة

العلمية كأساس له في الانطلاق نحو آفاق بعيدة للخيال يستطيع العلم بما وصل اليه من تقدم أن يجعلها حقيقة واقعة.

إلا أنني أعود لأرجع أصول هذا الجنس الأدبي الى فترات أبعد في التاريخ وفي العالم العربي تحديداً، إذ يشير بعضهم الى ما يسمى بأدب الخيال العلمي العربي، وهم يُرجعون جذوره الى نماذج مبكرة من الأسطورة وهي تعكس نمطاً خاصاً من التفكير يمتزج فيه الخوف من المجهول مع الرغبة في اكتشافه، فإذا بالأساطير تأتي مغلفة بشطحات الخيال، وحاضنة لبذور حقيقية عرفناها فيما بعد، وفسرناها بالعلم. فكأن هذا الخيال الذي تجلى في الأساطير والقص الشعبي يشجع على متابعة لمحات العلم هذه للوصول بها الى أن تصبح حقيقة، إذن ومن هذا المنطلق اعتبرناها خيالاً علمياً. ولو قارنا الأساطير التي عرفت في عمق الشرق الأقصى أو في الدول الاسكندنافية، وغابات أوروبا القديمة لوجدنا فيها مساراً للنفور والرعب، بينما هي عندنا مشوقة وجذابة، وتحرّض على الخيال للوصول الى الحقيقة.

وانطلاقا من كل ما سبق نستطيع القول إن المحاولات المبكرة لهذا الجنس الأدبي الذي أصبح الأكثر حداثة بين باقي الأجناس الأدبية كانت بداياتها عند العرب في محاولات رائدة سبقت مثيلاتها الغربية بعقود طويلة، فما بالنا لا نستفيد في عالمنا العربي من كل هذا؟

إلا أنهم في الغرب الآن قد عكسوا مقولة النبوءات العلمية تلك عندما أخذوا يدرسون مدى تطابق الواقع العلمي القائم مع كتابات الخيال العلمي التي سطعت منذ أكثر من قرن من الزمان، بينما ما يزال أدب الخيال العلمي في عالمنا العربي متواضعاً، ويسير خجولاً بين باقي الأجناس الأدبية المعروفة إلا من بعض التجارب الرائدة التي أسست لظهور عدد من كتّاب الخيال العلمي في الوطن العربي ففي سوريا عرفنا (الدكتور طالب عمران)، وكان وحيداً ومتفرداً في مجاله، كما كان ومازال رائداً.

وأخيراً أقول إن علينا أن نحقق من خلال أدب الخيال العلمي تلك النقلة النوعية في أذهان الشباب بين الماضي والحاضر.. بين ما كان يُحكى على أنه خيال، وما أصبح على أرض الواقع أجمل من الخيال. وتظل روايات الخيال العلمي وقصصه هي نافذة لإطلاق الخيال على جناح العلم.. وإنه الخيال وبما يخلقه من سحابات ملونة، وما يطلقه في ذهن القارئ من عوالم سحرية. وتبقى الرواية والقصة مشوقة طالما أن فيها المغامرة والمفاجأة وملامسة المستقبل.